

«جواهري» سعودي غائب حاضر

طاهر زمخشري

شخصية العام الأدبية التي يحتفي بها سوق عكاظ



المكئة التي يحظى بها زمخشري في وجدان السعوديين فدعت الملك الراحل فهد بن عبد العزيز إلى تحمل تكاليف علاجه، قبل أن يمنحه جائزة الدولة التقديرية.



الشاعر الذي يصف نفسه بـ «كلمة من الفحم» هو صاحب كلمات أول أغنية تسجل وتبث في السعودية، وهو الذي اكتشف كلا من الفنانين طلال مداح ومحمد عبده.



الحبيب الأسود
كاتب تونسي

مثل طاهر زمخشري الشاعر والإنسان، سوق عكاظ في دورته الـ 13، ونظمت جامعة الطائف ندوة تحت هذا العنوان شارك فيها كل من محمد الشنطي الأستاذ الزائر بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بورقة عمل بعنوان «طاهر زمخشري: ملامح تجربته الأدبية بين الإبداع والإعلام»، والناقد الأدبي حسين علوي بافقيه بورقة عمل بعنوان «طاهر زمخشري، صانع البهجة»، ألقى الكاتب والمؤلف محمد توفيق بلو حفيد طاهر زمخشري بورقة حملت عنوان «محطات إنسانية في حياة الأديب طاهر زمخشري»، ثم الشاعر والناقد الأدبي معيض بن عطية القرني، بمشاركة نخبة من المثقفين والأدباء الذين أغنوا التكريم بمدخلاتهم وتساؤلاتهم.

بين أعيان مكة

حفيد «بابا طاهر» كما يلحق للسعوديين مناداته، والذي عاش معه نحو 20 عاما تحت سقف بيت واحد بعد أن كفلته وإخوته الخمسة من كبرى بناته سميرة إثر وفاة زوجها، تحدث لـ «العرب» عن عدد من الجوانب غير المعروفة في شخصية الشاعر الكبير التي عكف على دراستها، بعد أن ألف حولها كتابيه «المناسفة السمرات» و«الأديب طاهر زمخشري».

يقول بلو «لعبت البيئة التي ولد ونشأ فيها زمخشري دورا رئيسيا في تكوين اللجنة الأولى من شخصيته الفكرية والأدبية وجهه لسياسة العيش حيث ولد بوقت بيت الكاظمي في حارة اللفق، وهي من حواري مكة المكرمة القديمة، من أسر مكة البسيطة، وقيل إن والده أطلق عليه في البداية اسم إبراهيم ولكن صديقه العلامة الشيخ محمد هاشم بن محمد الفتوي المالكي المدني المشهور بـ «الفا هاشم» أشار عليه بتسميته طاهرا».

ويضيف بلو «انتقلت أسرته إلى بيتها الجديد في حارة القرارة بالمحكمة الشرعية بمكة المكرمة ونشأ فيه حيث كان والده يعمل حارسا للمحكمة، ومن مسؤولياته فتح مكتب رئيسها الشيخ أحمد بن إبراهيم الغزالي وتنظيفه وملء الثراب، فكان يرافق والده كل صباح، ليجلس على كرسي مكتب الشيخ قبل حضوره ويتقمص دوره، وعندما يأتي الشيخ ويراه على هذا الوضع ينهره

راهب البريد

لعبت عادات وتقاليد الزواج ومناسبات مكة دورا في جعله أحد أشهر شعراء المجسات الجدد، وحظي بعناية ورعاية مدير مدرسة الفلاح الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن حمدو السبأري الذي رشحه مع عدد من الطلاب للعمل في وظيفة مؤقتة لأول إحصاء سكاني في العهد السعودي لمكة، فقادته تلك الوظيفة إلى التعرف عن قرب على كبار أعيان وشخصيات مكة الذين ساهموا في تكليل مسيرته الأدبية بالنجاح، وعلى رأسهم الشيخ عباس قطان أمين العاصمة المقدسة آنذاك.

ارتبطت حياة زمخشري العملية بالعديد من الجوانب الإنسانية التي قادته لتجسيد طموحاته وأحلامه، فمجرد تخرجه من مدرسة الفلاح طلب منه والده الذهاب للعيش في المدينة المنورة للتعرف على والدته ورعايتها، فأقام معها وعمل مدرسا بأول دار أيتام في المملكة أسسها الشيخ عبدالغني داه، ومن خلالها التقى وتعرف بعدد من أدباء المدينة منهم

مداعبا: ماذا تفعل؟ فيقول له «أريد أن أصبح شاعرا مثلك»، حيث كان الشيخ الغزالي من شعراء مكة المعروفين منذ العهد الهاشمي».

مرت الأيام على زمخشري وهو يلعب في المحكمة ويلتقي بكبار الشخصيات من أعيان وعلماء ومشايخ مكة الذين كانوا قضاة فيها أو يترددون عليها، ومن بينهم الشيخ ابن بليهد والشيخ ابن شلهوب، فحظي بحبهم وعنايتهم حين ظهر عليه من نبوغ مبكر ومن حب للعب والفكاهة، وكان لهم دور كبير في تكوين شخصيته الفكرية والدينية.

ويتابع حفيد الشاعر الراحل سرد ذكريات جده، فيصف «كان لمدرسة الفلاح التي تخرج منها في العام 1929 دور مباشر في نبوغه الشعري وتنمية حسه الإنساني وإكسابه مهارة العمل، حيث بدأ حياته التعليمية بالكتاب كساتر أطفال مكة فالتحق بكتاب الشيخ عبدالمعطي ثوري بحارة الباب ومنه انتقل إلى مدرسة الفلاح عام 1918 التي كانت من أوائل المدارس الحديثة في الحجاز ومصنعا للفكر والأدب باعتمادها على أمهات الكتب الفقهية واللغوية والأدبية».

ويتابع «واجه ظروفًا اجتماعية صعبة حينما انفصل والده والساده وانتقلت والدته للعيش في المدينة المنورة، وبالرغم من ذلك استطاع أن يتجاوز تلك الظروف بالرعاية والحنان اللذين حظي بهما من أهالي الحي والجيران على رأسهم بيت السيد عثمان بنسا، والذين ربطته بهم أحوه رضاءة، وبيت السيد علي الكنتي. فاستطاع أن يكمل مسيرته التعليمية وبرزت موهبته في الخطابة والشعر».

عشق إحدى فتيات أسر مكة الأرستقراطية وقادته هذه الوظيفة مع دعم وتشجيعه بالسير إلى مصر والالتقاء بابائهما وإصدار أول ديوان شعر له يطبع في تاريخ السعودية «أحلام الربيع».

قادته عاطفته الجياشة إلى الوقوع في عشق إحدى فتيات أسر مكة الأرستقراطية ورغب في الاقترب بها كشريكة حياة، لكن الفوارق الاجتماعية حالت دون ذلك، فكانت بمثابة جرح عاطفي أشعل شاعريته وإنسانيته، فقال بيته الشهير «حسبي من الحب أني بالوفاء له/ أمشي وأحمل جرحا ليس يلتئم/ وما شكوت أني إن ظلمت فكم/ قبلي من الناس في شرع الهوى ظلموا». وراى والده تزويجه من وسطه الاجتماعي فاختار له السيدة أمته بنا التي اقترنت بها وعاش معها في بيته بحارة التسامية بمكة، فغمرها بحبه المندفق من فؤاده ووجدانه كمنأ لها كل الوفاء على حنها الذي بادلتها إياه، وشاء القدر أن يصطدم بمأساة لم تكن بحسبانته إذ أصيبت بمرض السل الذي أدى إلى وفاتها وهما في ريعان الشباب، وعبر عن ذلك في رثائه لها بقصيدة «يا ليالي» التي مهرها بقوله «أودعتها مقرها الأخير وتفرق المشيعون ووقفت مكاني أنرف هذه الدفعة». وقد فارتق الحياة تاركة له مسؤولية رعاية بناته اليتامى الأربع اللاتي خاطبنه بقصيدته «شاربات الدمع» التي مهرها بقوله «جتون حولي بذرفن الدمع السخين على والدتهن فأنرفت من أجلهن الدفعة، «يا بناتي وحسبك شقاء أمني بينكن أبكي شبابي/ عجا للزمان ينحر أمالي ويحت خطوة في طلاي».

ولم يكف بفق من هول تلك الصدمة حتى فجع بصدمة أخرى حينما ماتت محبوبته الأولى بعد 4 أشهر من وفاة زوجته، فأصبح قلبه يحمل جرحين عاش بهما طيلة حياته ولم يتزوج بعدها أبدا، ما جعله يطلق على نفسه شاعر الحب والحرمان، ورثاها بقصيدته «إليها» ومهرها بقوله «إلى التي ملات حياتي شعرا وحبا ثم خطفها الموت». ومما جاء

فيها «هي كانت لي الجحيم ولكن كان بردا يزيد قلبي رواء/ هي كالشمس تملأ الكون نورا لم تلامس وإن أفاضت سناء/ ثم لما سعى المنون إليها جئت أرجو أن أكون الفداء/ هي كانت لي النعيم المرخي فاضاع المنون مني الرجاء».

مولد لقب «بابا طاهر»

في الأثناء التي كان يعيش فيها أحزان وفاة زوجته ورعاية بناته اليتامى انبثقت له فرصة تحقيق طموحاته وأحلامه ليتسامى بها فوق الإمه وأشجانها، وذلك حينما اختاره الشيخ محمد سرور صبان وزير المالية آنذاك للانضمام إلى فريق تأسيس أول إذاعة في المملكة بالقلعة على جبل هندي بمكة في العام 1948 برئاسة الشيخ إبراهيم الشورى وعضويته والسيد هاشم زواوي، وأحمد السباعي، ومن حينها انطلق بمسيرة عمل إذاعي حافل جعلته أحد أهم رموز العمل الإذاعي في بلاده ببرنامجه الشهير «ركن الأطفال» وهو أول برنامج للأطفال في البلاد، واكتسب منه لقب «بابا طاهر» الذي أحبه وعاش به طيلة حياته، وكان البرنامج بمثابة حلم تحقق خفف عنه الكثير من الآلام التي كان يعيشها لاسيما وأنه لاقتى نجاحا منقطع النظير قدم من خلاله العديد من المواهب والرواد في مجالات الأدب والإعلام والفن منهم عباس غزاي، محمد سعيد طيب، محمد عبده، يمانى، الموسيقى جميل محمود، وكل تلك المسيرة بإصدار أول مجلة سعودية للأطفال وهي «مجلة الروضة» في العام 1959 وبها ترسخ لقبه الشهير «بابا طاهر» وعذ رائدا لأدب الطفل المعاصر في المملكة.

وأما عن المرض في حياة بابا طاهر فيقول حفيده إنه مثل في حياته نقطة تحول قادته إلى إبداعات

أدبية وفنية جديدة جعلته يتجاوز الآلام والمعاناة ففي مطلع الستينات، حين انتكس حلمه الكبير بتوقف صدور مجلة الروضة وتكبده خسائر مالية وتحمله لديون باهظة، فانهارت أعصابه ونقل إلى مستشفى شهر بالطائف ثم أمر الملك سعود بنقله للعلاج في مصر ومكث فيها 3 سنوات تلقى خلالها العلاج إلى أن شفي تماما واستأنف نشاطاته الأدبية والفنية مقدما ندوة إبداعاته الشعرية والفنية والإعلامية منتقلا بها بين المملكة ومصر ولبنان وتونس، فكلت تلك المسيرة بتقدير الجمهورية التونسية له بوسام الاستقلال من الرئيس الحبيب بورقيبة في العام 1966 ثم بوسام الاستحقاق الثقافي التونسي بعدها».

وبعد مرور سنوات على ذلك العطاء دامه مرض السكري ولازمه لسنوات جعلته في سباق مع المرض الذي تفاقم وأثر على صحته العامة، فأصيب بالفشل الكلوي وضيق في الشرايين، حتى أنه قال «أكل الداء بعض جسمي وأبقى ما أحمل به الماسي جليدا/ واعتلالني يشد حبل اصطباري واحتمالي يزيد في الصمود/ لا أبالي الإصغار من وطاة الداء ولو كان عاصفا عربيدا». وبحكم المكائنة والعناية التي حظي بها من الدولة أمر الملك الراحل فهد بن عبدالعزيز بتحمل تكاليف علاجه، وخلالها تنقل بين لندن ولوس أنجلوس والرياض. وفي العام 1986 منح زمخشري جائزة الدولة السعودية

زمخشري الذي يحمل العديد من الأوسمة والجوائز والتقدير والتقدير التي كان من أهمها الأسطوانة الذهبية من اليونسكو، ترجمت بعض قصائده إلى اللغات الإنكليزية والألمانية والفرنسية بطلب من المنظمة ذاتها

التقديرية في الأدب، في حفل بحضور الملك فهد وكبار المسؤولين، وقال بالمناسبة «أنا طاهر زمخشري المعروف كما قيل عني كومة من الفحم سوداء تلبس ثيابا بيضاء تقول شعرا قصائد حمراء وخضراء وصفراء، ومن قصائدي البيضاء أن أغني للحب وأن أغني للوفاء كما عشت أغني للحب والوفاء في مشواري الطويل. الآن خطوتي تلقتي وما عدت أمشي. ولا أستطيع حتى القعود، ولكني مع ذلك جئت من تونس بإصرار لأشارك هذه الحفلة، ولألقى قصيدي بإصرار، على الرغم من أنه اقترح علي أن يلقبها عني أحد أبنائي المذيعين أو ابني فؤاد، فأصرت أن أغني لهذه الحضارة المشواري الطويل. الآن خطوتي تلقتي وما عدت أمشي. ولكني أعيش في تونس على صداها، بالفرح على سريري الأبيض، وقد أعطتني الدفق، والحياة، والقوة، لأقف موقفى هذا وأنا مريض». وانتشد قصيدته «يا أعذب الحب».

أعقب ذلك التكريم نبلة العديد من الجوائز والتقدير من أهمها الأسطوانة الذهبية من منظمة اليونسكو، وترجمت بعض قصائده إلى اللغات الإنكليزية والألمانية والفرنسية بطلب من المنظمة. ويبقى زمخشري شاعرا بارزا وسط الحركة الشعرية العربية، تضعه في مصاف كبار الشعراء الكلاسيكيين العرب مثل الجواهري وبدي الجبل وآخرين، وهو صاحب كلمات أول أغنية تسجل وتبث في السعودية وهي «يا فرحتي يا بهجتني البارحة عند الغروب» بمناسبة افتتاح بلدية الرياض، وهو الذي قدم واكتشف العديد من الفنانين من أشهرهم الموسيقار طارق عبدالكريم، الموسيقار غازي علي، طلال مداح، محمد عبده، هيام بونس، ابتسام لطفي، هناء الصافي، عابدة بوخرصي، وغيرهم، وصدرت له ستة دواوين شعرية من أشهرها «بأبعيات صبا نجد».



مهرجان سوق عكاظ في دورته الـ 13 ينظم ندوة حول زمخشري بمشاركة نخبة من المثقفين والأدباء الذين يرصدون تجربة الشاعر السعودي الكبير ومسارات حياته وإسهاماته العديدة

